جامعة الأزهر

حولية كلية أصول الدين بالقاهرة

رئيس التحرير

أستاذ دكتور

منيع عبد الحليم محمود

عميد كلية أصول الدين بالقاهرة

جامعة الأزهر

المجلد الأول

العدد التاسع عشر

١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م

جامعة الأزهر

حوليـة
كلية أصول الدين القاهرة

رئيس التحرير

أ.د. منيع عبد الحليم محمود
أستاذ التفسير وعلوم القرآن
وعميد كلية اصول الدين بالقاهرة — جامعة الأزهر

العدد التاسع عشر
١٤٢٣ هـ — ٢٠٠٢ م

المجلد الأول

هيئة التحرير

رئيس التحرير

أ.د. منيع عبد الحليم محمود

أستاذ التفسير وعلوم القرآن

وعميد كلية اصول الدين بالقاهرة — جامعة الأزهر

نائب رئيس التحرير

أ.د. محمد عبد الفضيل القوصى

أستاذ العقيدة والفلسفة

ووكيل كلية اصول الدين بالقاهرة — جامعة الأزهر

الإشراف العام

أ.د. ابراهيم عبد الرحمن خليفة أستاذ ورئيس قسم التفسير وعلوم القرآن.

أ.د. عبد المعطى محمد بيومى أستاذ ورئيس قسم العقيدة والفلسفة.

أ.د. عزت على عطية أستاذ ورئيس قسم الحديث وعلومه.

أ.د. محمود يوسف كريت أستاذ ورئيس قسم الدعوة

بسم الله الرحمن الرحيم

مقــدمــة

فى الخطاب الإسلامى

تأملات فى المنهج

أ.د/ منيع عبد الحليم محمود أستاذ التفسير وعلوم القرآن وعميد كلية أصول الدين بالقاهرة – جامعة الأزهر

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشــرف المســلمين سيدنا محمد، وعلى آله وأصحابه الأطهار الطيبين أفضل الصـــلاة، وأتــم التسليم.

وبعــد،،،

فإن الفقه الإسلامى: هو مواد السلوك للمسلم: إنه يتناول حياته فــى الصغير منها والكبير، وينظم سلوكه الأخلاقى بأوسع ما تتضمنـــــه كلمــة أخلاق، منذ أن يصبح إلى أن يمسى، ومنذ ميلاده إلى أن تنتهى به الحياة.

ثم ينظم شئون ميراثه – إن كان له ميراث – بعد حياته.

إنه ينظم سلوكه مع نفسه، ويشرح له من ذلك ما خفى، وما ظـهر، وينظم سلوكه مع الله، فيبين له ما ينبغى أن يتحلى به حتى يصير ربانيــاً، وينظم سلوكه مع إخوانه فى المجتمع، سلباً وإيجاباً، قولاً وفعلاً، إنه قـانون الحياة بالنسبة للمسلم.

إنه القانون الذى يبين أنواع السلوك، من حيث كونـــه جــائزاً، أو واجباً، أو مستحباً، ومن حيث كونه حراماً، أو مكروهاً وذلك فى ميــادين الحياة.

لقد تتبع آيات القرآن الكريم، وتتبع الأحاديث النبوية تتبعـــاً دقيقــاً ونسقها، فأصبح بذلك صورة واضحة لحياة المسلم، وتغلغل بذلك فى جميع الميادين، حتى تلك التى ما كان الإنسان يظن أنـــه ينتبــه إليــها أو يتجــه نحوها.

خذ مثلاً مسألة الروائح الذكية، أو العطرية، نجده يذكر عن أبــى هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: "من عرض عليه طيب فلا يــرده، فإنــه

خفيف المحمل طيب الرائحة"، وعن أبى سعيد أن النبى ﷺ قال فى المسك هو: "أطيب طيبكم".

ويذكر فى الفرق بين التزين والكبر:

عن ابن مسعود، قال: قال رسول الله ﷺ : "لا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثال ذرةٍ من كبر، فقال رجل: إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسناً، ونعله حسنة. قال: إن الله جميل يحب الجمال، الكبر بطر الحق وغمط الناس" – رواه مسلم فى كتاب الإيمان

ومن هذا الوادى – وادى التزين والروائح الطيبة – عن جابر أن النبى ﷺ قال:

"من أكل الثوم، والبصل، والكراث: فلا يقربن مسجدنا، فإن الملائكة تتأذى مما يتأذى منه بنو آدم"[١].

ويتحدث الفقه عن: الذهب، والحرير، والأقمشة المحلاة بالتصاليب فيذكر: عن أبى موسى، أن النبى ﷺ قال: "أحل الذهب والحرير للإناث من أمتى، وحرم على ذكورها"[٢].

وعن حذيفة قال: "نهانا النبى ﷺ أن نشرب فى آنية الذهب والفضة، وأن نأكل فيها، وعن لبس الحرير والديباج، وأن نجلس عليه"[٣].

وعن أنس: "أن النبى ﷺ رخص لعبد الرحمن بن عوف، والزبير فى لبس الحرير لحكة كانت بهما".

وعن عائشة أن النبى ﷺ : "لم يكن يترك فى بيته شيئاً فيه تصاليب إلا نقضه" رواه البخارى، وأبو داود وأحمد ولفظه: "لم يكن يدع فى بيته ثوباً فيه تصليب إلا نقضه".

ويتحدث الفقه عن نواح من التحفظ الصحى فيذكر: عن جابر عن النبى ﷺ : "أنه نهى أن يبال فى الماء الراكد"[٤].

١– متفق عليه

٢– رواه أحمد والنسائى، والترمذى وصححه.

٣– رواه البخارى.

٤– رواه أحمد، ومسلم، والنسائى، وابن ماجه.

وعن جابر بن عبد الله، فى حديث له، أن النبى ﷺ قال: "أوك سقاءك، واذكر اسم الله، وخمر إناءك واذكر اسم الله، ولو أن تعرض عليه عوداً" متفق عليه.

ولمسلم: أن رسول الله ﷺ قال "غطوا الإناء، وأوكوا السقاء، فإن فى السنة ليلة ينزل فيها وباء لا يمر بإناء ليس عليه غطاء، أو سقاء ليس عليه وكاء، إلا نزل فيه من ذلك الوباء".

وعن أبى هريرة ﷺ أن النبى ﷺ قال: "اتقوا اللاعنين. قالوا: وما اللاعنان يا رسول الله؟ قال: الذى يتخلى فى طريق الناس، أو فى ظلهم"؛ أى: الذى يقضى حاجته فى الطريق الذى يسير فيه الناس، أو تحت الأشجار التى يستظلون بها[١].

أما عن التبرج والتخنث فإنه يشرح:

عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ :

"صنفان من أهل النار لم أرهما بعد: كاسيات عاريات مائلات مميلات، على رءوسهن أمثال أسنمة البخت المائلة، لا يرين الجنة، ولا يجدن ريحها، ورجال معهم سياط كأذناب البقر يضربون بها الناس"[٢].

وعن أبى هريرة أن النبى ﷺ : "لعن الرجل يلبس لبس المرأة، والمرأة تلبس لبس الرجل"[٣].

والحديث عن التبرج والتخنث، يجر إلى الحديث عن سفر المرأة وحدها، فعن أبى هريرة فيما رواه الشيخان: أن رسول الله ﷺ قال:

"لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تسافر مسيرة يوم وليلة إلا مع ذى محرم عليها".

وعن ابن عباس رضى الله عنهما – فيما رواه الشيخان أيضاً – أنه سمع النبى ﷺ يقول:

١– رواه أحمد، ومسلم، وأبو داود.

٢– رواه أحمد، ومسلم.

٣– رواه أحمد، وأبو داود.

"لا يخلون رجل بامرأة إلا ومعها ذو محرم، ولا تسافر المرأة إلا مع ذى محرم، فقال له: يا رسول الله إن امرأتى خرجت حاجة، وإنى كتبت فى غزوة كذا وكذا. قال: انطلق فحج مع امرأتك".

والحديث عن التبرج أيضاً يجر إلى الحديث عن كشف العورة.

عن بهز بن حكيم، عن أبيه، عن جده قال: قلت: يا رسول الله عوراتنا ما نأتى منها وما نذر؟ قال : "احفظ عورتك إلا من زوجتك، أو ما ملكت يمينك".

قلت: فإذا كان القوم بعضهم فى بعض؟ قال: إن استطعت ألا يراها أحد فلا يرينها. قلت: فإذا كان أحدنا خالياً؟ قال: فالله تبارك وتعالى أحق أن يستحيا منه".

وعن على ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ : "لا تبرز فخذك، ولا تنظر إلى فخذ حى ولا ميت"(١).

وعن محمد بن جحش، قال: مر رسول الله ﷺ على معمر وفخذاه مكشوفتان، فقال: "يا معمر: غط فخذيك فإن الفخذين عورة"(٢).

وعن ابن عباس، عن النبى ﷺ قال: "الفخذ عورة" رواه الترمذى، وأحمد ولفظه.

"مر رسول الله ﷺ على رجل وفخذه خارجة، فقال: غط فخذيك، فإن فخذ الرجل من عورته".

وعن يعلى بن أمية: "أن رسول الله ﷺ رأى رجلا يغتسل فى فضاء مكشوف، فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: إن الله عز وجل حيى ستير يحب الحياء والستر، فإذا اغتسل أحدكم فليستتر"(٣).

ويأخذ الجانب الأخلاقى شأنا كبيرا فى الفقه نذكر منه على سبيل المثال:

عن ابن عباس رضى الله عنهما أن النبى ﷺ : "مر بقبرين، فقال: إنهما يعذبان وما يعذبان فى كبير: أما أحدهما، فكان لا يستتر من بوله،

١- رواه أبو داود، وابن ماجه.

٢- رواه أحمد والبخارى فى تاريخه.

٣- رواه أبو داود، والنسائى.

وأما الآخر فكان يمشى بالنميمة" رواه أصحاب الصحاح، وفى رواية البخارى والنسائى: "وما يعذبان فى كبير"، ثم قال: "بلى كان أحدهما..." وذكر الحديث.

ويروى الفقه فى هذا الجانب قوله ﷺ : "بعثت لأتمم حسن الأخلاق(١)".

ويصل الأمر بسعيد بن المسيب أن يقول:

ألا أخبركم بخير من كثير من الصلاة والصدقة؟ قالوا: بلى. قال: إصلاح ذات البين، وإياكم والبغضة فإنها الحالقة.

ويروى الفقه قول رسول الله ﷺ لكل دين خلق، وخلق الإسلام الحياء، وتقول السيدة عائشة رضى الله عنها أن رسول الله ﷺ ما خير فى أمرين قط إلا أخذ أيسرهما ما لم يكن إثماً، فإن كان إثما كان أبعد الناس منه، وما انتقم رسول الله ﷺ لنفسه إلا أن تنتهك حرمة الله فينتقم الله لها(٢).

ويصل الأمر فى الفقه إلى تنظيم كيفية الأكل، والشرب، وما يقوله الإنسان عند خروجه من البيت، وعند دخوله، وعند ركوبه وعند نزوله.

وفى الملابس، مثلا:

عن أبى هريرة قال: كان رسول الله ﷺ إذا لبس قميصا بدأ بميامنه".

وعن أبى سعيد قال: كان رسول الله ﷺ إذا استجد ثوباً سماه باسمه، عمامة أو قميصاً أو رداء، ثم يقول:

"اللهم لك الحمد، أنت كسوتنيه، أسألك خيره وخير ما صنع له، وأعوذ بك من شره وشر ما صنع له"(٣).

وما كان الفقه فى يوم من الأيام خاصاً بجانب من الحياة الاجتماعية دون جانب.

١- الموطأ.

٢- الأحاديث من المصدر السابق.

٣- رواهما الترمذى.

لقد كان يتضمن الأخلاق، ويتضمن التشريع، كان يشتمل على العبادات، والمعاملات: بيعاً وشراءً، وجهاداً وقتالاً، وسلاماً، نكاحاً وميراثاً، لقد كان الفقه يشرع للإنسان فى جميع أقطاره وزواياه.

وكانت الطريقة المثلى للتأليف فى الفقه: هى الطريقة التى اتبعها السلف الصالح، رضى الله عنهم: لقد اعتقدوا اعتقاداً موفقاً هو أن مهمتهم إنما هى: جمع الأحاديث فى كل مجال، وتنسيقها، وتبويبها، وتقسيمها إلى فصول، وإلى فقرات تنتظم جميعها تحت وحدة متحدة: هى الحياة الإسلامية.

والحياة الإسلامية: لا تنقسم إلى ميادين تنفصل وتعدد، إنها وحدة متماسكة، ومن هنا كانت هذه الكتب الأولى فى "الحياة الإسلامية" تبدأ بالحديث عن الوحى، وعن الإيمان، وعن العلم.

وإذا تصفحت كتاباً مثل الموطأ للإمام مالك ﷺ وهو كتاب فقه رغم كل ما يمكن أن يقال، بل هو فى نظرنا كتاب الفقه المثالى: فإنك تجد فيه فصلاً عن حسن الخلق، وفصلاً يطول عن صفة الرسول ﷺ للتأسى به، ومتابعته فى أخلاقه وسلوكه، وفصلاً عن الرؤيا، وتجد فصلاً عن العلم، وفصلاً عن أسمائه ﷺ.

كان الفقه الإسلامى صورة كاملة لحياة المسلم على صورتها الصحيحة، وفى ترابطها الذى لا انفصام له ولا انفكاك.

لقد كان شرحاً للإسلام، وتفصيلاً للإيمان، والإسلام هو تصوير للحياة التى أحبها الله لمن كانوا خير أمة أخرجت للناس، والإيمان الإسلامى: تعبير عن الحياة الإسلامية الخالصة المخلصة.

والإيمان فى وحدته التامة شعب كثيرة:

عن أبى هريرة ﷺ قال: يقول رسول الله صلوات الله وسلامه عليه: "الإيمان بضع وسبعون شعبة، والحياء شعبة من الإيمان".

وحيثما بيَّن سادتنا العلماء المحققون، الذين أخلصوا لله ورسوله، تلك الشعب، عن طريق الأحاديث الشريفة التى وضحت الإيمان، وعن طريق الآيات القرآنية الكريمة، التى تحدثت عن الإيمان: قسموا تلك الشعب إلى ما يختص منها بالقلب، وما يختص باللسان، وما يختص بالبدن؛ أى: أن الإيمان يغمر الكيان الإنسانى كله، اعتقاداً وقولاً، وفعلاً.

ومن الأحاديث الشريفة: نتبين أن الحب فى الله والبغض فى الله من الإيمان، وأنه: لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه.

وأن الذى يؤذى جاره: ليس بمؤمن.

وليس بمؤمن: من شبع وجاره جائع.

وأن الجهاد من الإيمان: يقول صلوات الله عليه وسلامه:

"انتدب الله لمن خرج فى سبيله، لا يخرجه إلا إيمان بى، وتصديق برسلى: أن أرجعه بما نال من أجر، أو غنيمة، أو أدخله الجنة، ولولا أن أشق على أمتى ما قعدت خلف سرية، ولوددت أن أقتل فى سبيل الله، ثم أحيا ثم أقتل ثم أحيا، ثم أقتل".

ومنها نتبين أيضا أن:

قيام ليلة القدر: من الإيمان.
والإنصاف من النفس: من الإيمان.
وبذل السلام للعالم: من الإيمان.
والإنفاق من الاقتدار: من الإيمان.
وتطوع قيام رمضان: من الإيمان.
وصوم رمضان إيمانا واحتسابا : من الإيمان.

والصلاة : من الإيمان، بل لقد عبر الله تعالى عنها بالإيمان فى قوله تعالى: ﴿**وما كان الله ليضيع إيمانكم**﴾(١).

ويتغلغل الإيمان فى الحياة الاجتماعية حتى يصل إلى السهل من أمرها، والميسور: فتكون إماطة الأذى عن الطريق: من الإيمان، ويكون إفشاء السلام – تعارفا وتوددا – من الإيمان.

وإذا ما تغلغل الإيمان فى النفس، وجد المؤمن حلاوة الإيمان، وهو لا ينعم بحلاوة الإيمان إلا أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما.

وأن يحب المرء لا يحبه إلا الله

وأن يكره أن يعود فى الكفر، كما يكره أن يقذف فى النار(١).

١- البقرة: ١٤٣.

لقد كان الفقه : بياناً للحياة الإسلامية حسبما رسمها الرسول ﷺ، وكان يلبى حاجات المجتمعات فيما يتعلق بالأحكام الإسلامية كلما أحدثت المجتمعات جديداً من الأمر، أو ابتدعت شأناً من الشئون.

لقد كان الصحابة يلجئون إلى الآيات القرآنية يستلهمونها الصواب، وإلى الأحاديث النبوية يستمدون منها الرشد.

وما كان الفقه فى يوم من الأيام، وما كانت هذه المواد التى تنظم الحياة، آراء بشرية، إنها ليست نتيجة منطق بشرى، أو منطق تفكير إنسانى، يصدر عن الذات الإنسانية، فيختلف فيه الناس من فرد إلى فرد ومن بيئة إلى بيئة، ومن زمن إلى آخر، كما يختلفون، بحسب ذلك، فى كل ما هو نتاج بشرى.

كلا، إن الفقه الإسلامى، إنما هو ميراث النبوة، إنه شرح للوحى، أو بتعبير أدق: إنه ترجمة للوحى، واستنتاج من قواعده العامة، واتباع لسلوك الرسول ﷺ باعتباره المسلم الأول: "وأنا أول المسلمين".

أو باعتباره المطبق الدقيق لما أوحاه الله تعالى على قلبه رسالة إلى الإنسانية؛ لهدايتها إلى الصراط المستقيم.

إن الفقه الإسلامى: إتباع، وليس ابتداعاً، وانه محاولة جاهدة لكشف الآثار النبوية والتزامها، وليس اختراعاً يؤلفه بشر.

ولقد كان أئمتنا، رضى الله عنهم: ينبهون بأقوالهم، ونزعاتهم وسلوكهم، إلى هذا الأمر البدهى عند ذوى الشعور الدينى.

لقد كان شعار أئمتنا جميعاً رضى الله عنهم:

إذا صح الحديث فهو مذهبى.

إنما أنا متبع لا مبتدع.

كل إنسان يؤخذ منه ويرد عليه إلا صاحب هذه الروضة الشريفة.

وصاحب هذه الروضة الشريفة: هو وحده الإمام، وكان الإمام؛ لأنه الكائن الوحيد الذى اجتباه الله رسولاً خاتماً للرسل، ونبياً خاتماً للأنبياء.

١- هذه كلها درر منثورة اقتبسناها من أحاديث الرسول ﷺ فى شعب الإيمان.

وكل ما أتى به قرآناً كان، أو حديثاً قدسياً، أو حديثاً نبوياً شريفاً، إنما هو مقدس؛ لأنه ما ينطق عن الهوى، ولأنه يدعو إلى الله على بصيرة، ولأن من أطاعه فقد أطاع الله، ومن اتبعه فقد أحبه الله.

﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾(١)

﴿قُلْ هَـٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾(٢)

﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾(٣)

كان سلفنا الصالح ينزعون هذه النزعة: نزعة الخضوع المطلق لما جاء به الرسول ﷺ لقد كانوا يسجدون للنص، يسجدون له بجوارحهم وقلوبهم، وأرواحهم، وعقولهم، لقد كانوا يخضعون عقولهم للنص، ويجعلونه القائد الحكم، المهيمن.

وكانوا يعرفون أن إدخال شخصيتهم فى النص، إنما هو انحراف يعظم أو يقل بحسب مدى التدخل البشرى فى النص، وكانوا يعرفون أن الوحى جاء هادياً للعقل، قائداً له فى الأمور التى لا يتأتى للعقل أن يلج ميادينها، أو يقتحم حماها، أو يدلى فيها برأى يتفق عليه الناس.

وهذه الميادين هى الدين، وما دام الدين ليس رأياً بشرياً؛ لأنه تنزيل من حكيم حميد:

فإن كل موقف من الشخصية البشرية، تجاه النص الإلهى – سوى موقف السجود له – إنما هو موقف لتبديل الدين من أن يكون إلهياً إلى أن يكون بشرياً.

ولو كان يستقيم الأمر على ذلك – أى على التبديل – لما كان هناك من حاجة إلى الدين.

يروى أبو داود والدارقطنى عن سيدنا على ﷺ قال:

"لو كان الدين بالرأى لكان أسفل الخف أولى بالمسح من أعلاه، لقد رأيت رسول الله ﷺ، يمسح على ظاهر خفيه".

١- سورة النجم آية : ٣ – ٤.

٢- سورة يوسف آية : ١٠٨.

٣- سورة آل عمران: ٣١.

إن الدين ليس رأيا، وليس بالرأى، وانظر إلى الحديث التالى: إنه معبر أقوى ما يكون التعبير، ودقيق فى مغزاه، دقة بالغة:

عن البراء بن عازب ﷺ قال: قال النبى ﷺ : "إذا أتيت مضجعك، فتوضأ وضوءك للصلاة، ثم اضطجع على شقك الأيمن، ثم قل: اللهم إنى أسلمت نفسى إليك، ووجهت وجهى إليك، وفوضت أمرى إليك، وألجأت ظهرى إليك، رغبة ورهبة إليك، لا ملجأ ولا منجا منك إلا إليك، آمنت بكتابك الذى أنزلت، ونبيك الذى أرسلت، فإن مت فى ليلتك، فأنت على الفطرة، واجعلهن آخر ما تتكلم به".

يقول البراء بن عازب:

فرددتها على النبى ﷺ "أى أخذت فى إعادتها عليه ﷺ" فلما بلغت: آمنت بكتابك الذى أنزلت، قلت: ورسولك. قال: لا، ونبيك الذى أرسلت. رواه الستة.

وزاد البخارى والترمذى "فإنك إن مت من ليلتك مت على الفطرة، وإن أصبحت أصبت خيرا".

إن الصحابى الجليل البراء بن عازب ﷺ أبدل كلمة نسيانا منه، لقد قال: "رسولك" بدل أن يقول : "نبيك". وكلمة "رسول" تتضمن معنى النبوة فهى إذن فيها المعنى وزيادة، وبحسب منطقنا، وبحسب عقلنا تكون صالحة... ولكنها فى منطق الحق لم تكن صالحة.

إننا لا نرى بعقلنا ومنطقنا، إلا الشكل والظاهر، أما بواطن الأمور، أما أسرار الكلمات، أما حكمة الأوضاع المحددة، أما اكتناه خفايا التقديرات الإلهية... إن كل ذلك إذا لم يكشف الله عنه، أو عن بعضه فإننا لا نصل إليه بمنطق البشر.

﴿إنا كل شيء خلقناه بقدر﴾ (١) بمقدار محدد وتقدير معين.

واكتناه سر هذا القدر، أو هذا التقدير اكتناها تاما، لا يصل إليه الإنسان، بل لا تصل إليه الملائكة.

١- المقر: ٤٩.

﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى المَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَآءِ هَـٰؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ قَالُواْ سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَآ إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ (١).

إن العلم الصحيح الصادق فى عالم الهداية الإلهية، والتربية الربانية، إنما هو من الله سبحانه، وكل ابتعاد عنه، أو خروج عليه، أو تغيير فيه، إنما هو ضلال.

وما من شك فى أن الإنسان منذ أن وجد على ظهر الأرض: يحاول أن ينزع نزعة بشرية بحتة، ويتصرف فى الوحى الإلهى نقصا وزيادة، وبترا وإضافة، وتغييرا وتبديلا، يحاول أن يقيم كل ذلك على قواعد يزعمها صحيحة.

فيقول مثلا: إن الحكمة فى تحريم شرب الخمر، إنما هى المفاسد التى تنشأ من الشخص الشارب، فإذا ما انتفت تلك المفاسد، فلا مانع من شرب الخمر.

ويقول : إن التكاليف الدينية إنما جاءت لإصلاح الضمير فإذا كان الضمير صالحاً فلا لزوم للتكاليف الدينية.

ويقول: إن أعمال العبادة، إنما هدفها التقرب إلى الله، فإذا حصل القرب فلا حاجة إليها.

وهكذا يخرج الإنسان بأهوائه – ولا نقول بعقله؛ لأن كل ذلك أهواء يصورها الشيطان كأنها منطق معقول – عن الدين، كما خرج إبليس قديماً بأهوائه التى تمثلت لذهنه منطقاً عن الدين.

والإمام الغزالى ﷺ يمثل لنا ذلك بمثال معبر، فيذكر قصة رجل بنى له أبوه قصراً على رأس جبل، ووضع فيه شجراً من حشيش طيب الرائحة، وأكد الوصية على ولده مرة بعد أخرى، أن لا يخلى هذا القصر من هذا الحشيش طول عمره، وقال:

إياك أن تسكن هذا القصر ساعة من ليل أو نهار، إلا وهذا الحشيش فيه.

١- البقرة: ٣١ ، ٣٢.

فزرع الولد حول القصر أنواعاً من الرياحين، وطلب من البر والبحر أوتاداً من العود والعنبر والمسك، وجمع فى قصره جميع ذلك من شجرات كثيرة من الرياحين الطيبة الرائحة فانغمرت رائحة الحشيش لما فاحت هذه الروائح.

فقال: لا شك أن والدى ما أوصانى بحفظ هذا الحشيش إلا لطيب رائحته، والآن قد استغنينا بهذه الرياحين عن رائحته فلا فائدة فيه الآن إلا أن يضيق على المكان، فرماه من القصر.

فلما خلا القصر من الحشيش، ظهر من بعض ثقوب القصر حية هائلة، وضربته ضربة أشرف بها على الهلاك، فتنبه حيث لم ينفعه التنبه، إلى أن الحشيش كان من خاصيته دفع هذه الحية المهلكة، وكان لأبيه بالوصية بالحشيش غرضان: أحدهما: انتفاع الولد برائحته، وذلك قد أدركه الولد بعقله.

والثانى: اندفاع الحيات المهلكات برائحته، وذلك مما قصرت عن دركه بصيرة الولد، فاغتر الولد بما عنده من العلم، وظن أنه لا سر وراء معلومه، ومعقوله، كما قال تعالى:

﴿ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ﴾[1]

وكما قال: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ﴾[2].

والمغرور من اغتر بعقله، فظن أن ما هو منتفٍ عن علمه، فهو منتفٍ فى نفسه.

وما من شك – كما يروى[3] كتاب: إحصاء العلوم – فى أن آراء المال وكل ما فيها من الأوضاع: ليس سبيلها أن يمتحن بالآراء والروية والعقول الإنسية؛ لأنها أرفع رتبة منها، إذ كانت مأخوذة عن وحى إلهى؛ لأن فيها أسرار إلهية تضعف عن إدراكها العقول الإنسية ولا تبلغها.

١- النجم : ٣٠.

٢- غافر : ٨٢.

٣- مبيناً وجهة نظر بعض المتأملين فى مسائل الدين.

وأيضاً: فإن الإنسان إنما سبيله: أن تفيده الملل بالوحى ما شأنه ألا يدركه بعقله، وما يخور عقله عنه، وإلا فى معنى للوحى، ولا فائدة إذا كان إنما يفيد الإنسان ما يعمله، وما يمكن – إذا تأمله – أن يدركه بعقله.

ولو كان كذلك لوكِل الناس إلى عقولهم، ولما كانت بهم حاجة إلى نبوة، ولا إلى وحى، لكن لم يفعل بهم ذلك، فلذلك ينبغى أن يكون ما تفيده الملل من العلوم، ما ليس فى طاقة عقولنا إدراكه، ثم ليس هذا فقط، بل وما تستنكره عقولنا[1] أيضاً.

وذلك أن التى يأتى بها الملك – مما تستنكره العقول وتستبشعه الأوهام – ليست هى بالحقيقة منكرة ولا محالة.

"إن كثيراً من الصبيان والأغمار، يستنكرون بعقولهم أشياء كثيرة مما ليست فى الحقيقة منكرة، ولا غير ممكنة، ويقع لهؤلاء: أنها غير ممكنة، وهى ليست كذلك.

وكما أن الإنسان – من قبل أن يتأدب ويتحنك – يستنكر أشياء كثيرة ويستشعها، ويخيل إليه فيها: أنها محالة، فإذا تأدب بالعلوم واحتنك بالتجارب: زالت عنه تلك الظنون فيها، وانقلبت الأشياء التى كانت عنده محالة: فصارت هى الواجبة، وصار عنده ما كان يتعجب منه قديماً: فى حد ما يتعجب من ضده.

كذلك الإنسان الكامل الإنسانية: لا يمتنع من أن يكون يستنكر أشياء، ويخيل إليه: أنها غير ممكنة، من غير أن تكون فى الحقيقة كذلك[2].

ويشرح الشيخ الجليل أبو سليمان المنطقى، كل ذلك فى دقة دقيقة، وفى أسلوب جميل، فيقول:

إن الشريعة مأخوذة عن الله عز وجل، بوساطة السفير بينه، وبين الخالق من طريق الوحى، وباب المناجاة، وشهادة الآيات، وظهور

١- أى ما يخيل إلى بعض العقول أنه غير صادق.

٢- انظر كتاب إحصاء العلوم للفارابى الذى نقلنا عنه ذلك باختصار وتصرف.

المعجزات، وفى أثنائها ما لا سبيل إلى البحث عنه، والغوص فيه، ولابد من التسليم المدعو إليه، والمنبه عليه، وهناك تسقط "لِمَ؟".

ويبطل : "كيف؟".

ويزول "هلا؟".

وتذهب : "لو، وليت" فى الريح.

ولو كان العقل يكتفى به: لم يكن للوحى فائدة، ولا غناء.

على أن منازل الناس: متفاوتة فى العقل، وأنصباءهم مختلفة فيه، فلو كنا نستغنى عن الوحى بالعقل: كيف كنا نصنع، وليس العقل بأسره لواحد منا؟ فإنما هو لجميع الناس...

ولو استقل إنسان واحد بعقله فى جميع حالاته، فى دينه ودنياه، لاستقل أيضاً بقوته فى جميع حاجاته: فى دينه ودنياه، ولكان وحده يفى بجميع الصناعات والمعارف، وكان لا يحتاج إلى أحد من نوع وجنسه، وهذا قول مرذول ، ورأى مخذول".

يقول هذا الشيخ الجليل: إن منازل الناس متفاوتة فى العقل، وأنصباءهم مختلفة فيه، ومعنى ذلك أن هذا الذى يروق لشخص عقلياً، ربما لا يروق لغيره عقلياً، ويجب من أجل ذلك ألا يتدخل العقل فى الدين ,إلا لاختلف الناس فيه باختلاف عقولهم، وادعى كل، أن ما عليه إنما هو الحق، وما على غيره هو الباطل، ونتج عن ذلك إتباع كل أهواءه:

﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَـٰهَهُ هَوَاهُ﴾(١).

فتتفرق الأمة وتخرج على ما أحبه الله وأمر به:

﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلا تَفَرَّقُوا﴾(٢).

وإذا تساءلت الآن، ما هو إذن موقف العقل من الدين، وموقف الدين من العقل؟

فإننا نجمل الموضوع فى النقط الآتية:

أنزل الدين هادياً للعقل فى جميع الأمور التى لو ترك العقل وشأنه فيها ضل السبيل، وعجز عن الوصول إلى الحقيقة، وهذه الأمور هى:

١- الفرقان: ٤٣.

٢- آل عمران: ١٠٣.

أ- العقائد فى ما وراء الطبيعة.

ب- المبادئ الأخلاقية إجمالا وتفصيلا.

ج- التشريع: فى قواعده العامة، وفى بعض تفصيلاته، وقواعده العامة تتضمن الجزئيات على مر الزمن، وعلى اختلاف البيئات.

ونزل الدين ليقود الإنسان نحو الكمال الروحى، والإنسان إنسان بالجانب الروحى منه، وكلما سما الإنسان روحيا كان أسمى فى معنى الإنسانية:

والمعنى الروحى، ووسيلة المعنى الروحى، لا سبيل إلى تحديدهما من الإنسان نفسه، وإنما تحديدهما مرده إلى الله سبحانه والقرب من الله، أو بتعبير أدق، تقريب الله للإنسان، إنما مرجعه - هدفا ووسيلة - هو الله نفسه، وكل من حاول أن يتخذ طريقا آخر فإنما يجرى وراء سراب.

والغاية والوسيلة حددهما الله فى كتابه الكريم، إنه حددهما بالأسلوب الإلهى نفسه؛ أى: أن التعبير عنهما - التعبير نفسه - إنما كان من الله سبحانه ومن فضل الله على المسلمين، وعلى اللغة العربية، أن كانت وسيلة فهم الإسلام، هى التعبير الإلهى، التعبير الإلهى بما فيه من دقة كاملة، وجمال معجز، وكمال غير منقوص.

ومادام الأمر كذلك فليس للعقل إلا التسليم والخشوع والخضوع، أو بتعبير أدق: السجود.

وهو ليس سجودا تعسفيا أو تحكميا، وإنما هو سجود مصدره الإيمان اليقينى بأن هذا من عند الله، ومادام من عند الله،، فإنه لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه؛ لأنه تنزيل من حكيم حميد، ولأنه أحكمت آياته، ثم فصلت من لدن حكيم خبير.

من ذلك نتبين أن الدين هاد للعقل، وأن العقل يجب أن يخضع ويسجد للوحى الإلهى.

بيد أن ذلك يسلمنا إلى سؤال آخر أو مشكلة أخرى: هى أن القرآن يطالب دائما بالتفكير والتدبر.

﴿فاعتبروا يأولي الأبصار﴾(١).

١- الحشر: ٢.

﴿إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد[1].

وينعى على المشركين التقليد، ويتهكم بهم فى اتباعهم آباءهم فيتساءل: **﴿أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون﴾**[2].

وكثيرا ما تجد الآيات تختم بـ **﴿أفلا تعقلون﴾** **﴿أفلا تتفكرون﴾** **﴿أفلا تبصرون﴾**، وكل ذلك يدل على أن القرآن يدفع الناس إلى استعمال العقل.

والواقع الذى لا شك فيه ، هو أن القرآن لا يستشير الملائكة، ولا بنى الإنسان فى أية قضية من القضايا التى جاء بها الوحى، ولا يحتكم إلى الإنسان باعتباره حكما، فى أى مبدأ من مبادئه، ولا يطلب منه مشورة فى أية قاعدة من القواعد التى شرعها، بل هذه الأوهام لا تدور بخلد المتدين قط، ذلك أن الوحى: نزل على أنه رسالة السماء النهائية إلى العالم، ونزل يبلغ أن هذه الرسالة صدق كلها، حق جميعها، ليس فيها جملة زائدة، ولا كلمة ليست فى موضعها، ولا حرف كان يحسن ألا يوجد، كلا إنها الحق الخالص، من اتبعها، فقد اهتدى، ومن حاد عنها انحرف، ومن ابتغى الهدى فى غيرها أضله الله، ومن تركها من جبار قصمه الله؛ لأنها صراط الله المستقيم، ونوره اللألاء.

وكل ما ذكره تعالى من التفكير والنظر والتدبر: إنما أراد به الاعتبار، وأراد أن يقول: تفكروا لتروا أن ذلك هو الحق، انظروا لتعلموا أن ذلك هو الخير، أما إذا رأيتم غير ذلك، فإنما العيب فى بصركم، أو فى بصيرتكم، أو فيهما معا، إذا رأيتم غير ذلك، فاعلموا أن فطرتكم فسدت، وأن قلوبكم ران عليها الإثم: فضلت، وأن عقولكم قد صدئت، فأصبحت لا ترى الحق حقا، ولا الخير خيرا، وأصبحت من الضلال بحيث ترى الخير شرا، والشر خيرا، وأصبح أصحابها كالأنعام بل هم أضل سبيلا، كل ذلك لانحرافكم عن الصراط المستقيم، صراط الله.

١- ق : ٣٧.

٢- البقرة: ١٧٠.

إن الله، فى عظمته وجلاله، سبحانه: لا يلقى برسالته؛ ليبحثها الإنسان، ويبدى فيها رأيه، نفيا وإثباتا، سلبا وإيجابا، كلا، بل كل من توهم ذلك فإنه لا يقدر الله حق قدره، وتعالى الله عن ذلك علوا كبيرا، وإنما ألقاها سبحانه لتتبع، ولتتبع فى خضوع وسجود، ولتتبع دون حرج يحيك فى الصدر، أو شك يجول فى النفس:

﴿فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما﴾[1].

وكل من وجد فى نفسه حرجا فى قضايا الدين، وكل من لم يسلم تسليما كاملا مطلقا تاما، كل من كان كذلك، فإنه يحسن به أن يرجع إلى إيمانه ليصححه، وليتوب إلى الله توبة نصوحا، وباب الله مفتوح للتائبين آناء الليل، وأطراف النهار، وفى كل نفس، وفى كل لحظة، يقول أبو عمرو محمد بن إبراهيم الزجاجى النيسابورى:

"كان الناس فى الجاهلية يتبعون ما تستحسنه عقولهم وطبائعهم فجاء النبى ﷺ فردهم إلى الشريعة والإتباع، فالعقل الصحيح، هو الذى يستحسن محاسن الشريعة، ويستقبح ما تستقبحه".

ومسألة أخرى: هى مسألة تعليل الأحكام، وأن الحكم يدور مع العلة وجودا وعدما، وهى مسألة ترتبط بما قدمنا ارتباطا وثيقا، ذلك أن التعليل ذو صلة وثيقة - عادة - بالمنهج العقلى فى فهم الدين، وهذه المسألة لابد فيها من شئ من التفصيل.

أولا: إذا كان الشارع سبحانه، قد حدد العلة وحصرها، فإن لنا أن نقول: إنها الحكمة من القاعدة التى شرعت، ومادام الشارع هو الذى حددها وحصرها فإن الحكم يدور معها وجودا وعدما.

ثانيا: إذا كان الشارع قد ذكر علة دون أن يذكر حصرا، فإنه ليس لنا أن نقوم نحن بالتحديد والحصر، وإنما موقف المسلم هو أن يؤمن بالحكمة التى ذكرها الشارع، مع إيمانه بأنه يجوز أن تكون هناك حكمة أخرى.

١- النساء : ٦٥.

ثالثا : إذا لم يذكر الشارع حكمة للحكم، فإن لنا أن نلتمس، إذا شئنا، حكمة، ولكن يجب علينا ألا نزعم أنها الحكمة الحقيقية التى أرادها الشارع، ويجب علينا ألا نزعم أنها الحكمة الوحيدة.

وكل ذلك من أجل أن العقل البشرى لا يحيط بالأسرار الإلهية، وأن حكمة الشارع فى أحكامه أسمى من أن يحيط بها البشر إحاطة تامة.

ولست أدرى لماذا يخطئ بعض الناس فهم كلامى فى هذا الموضوع مع وضوحه، فيما اعتقد، وضوحا تاما.

لست أدرى لماذا يدعون على أنى ألغى العقل، ولا أنسجم مع المنطق، وأريد من أجل ذلك أن تكون فرصة مواتية لأوضح ما أومن به، إيمانا تاما، بعد بحث وتجربة وتمحيص.

إن التاريخ والواقع والتجربة يدل على أن العقل أنتج فى عالم الطبيعة حضارات متتالية، وأن الحضارة الحديثة، فى جانبها المادى إنما قامت على العقل، فالعقل هو الذى وصل بفروضه وتجاربه إلى ما بلغته الحضارة الحديثة، باختراعاتها وإنشاءاتها، وما فيها من كبريات الاختراعات وصغارها.

وليس هذا بالشئ اليسير، ونجاح العقل فيه لا ينكره منكر.

وأن التاريخ والواقع والتجربة يدل على أن العقل أخفق كل الإخفاق فى مجال المغيبات، والدليل السافر على ذلك تعدد المذاهب، وعدم الانتهاء فى أية مسألة من مسائل ما وراء الطبيعة إلى الاتفاق، وعدم الوصول فى أية مسألة منها إلى حل، وكذلك كان أمره ولا يزال فى الأخلاق وفى التشريع، وهذه المذاهب المتصارعة فى ميادين: الأخلاق والتشريع وما وراء الطبيعة، خير دليل على فشل العقل فى الوصول إلى الحق فيها.

ولقد ترك الدين للعقل المجال فى محيط الكون المادى.

إن الطبيعة والكون: من سمائه، وأرضه، ومن جباله وبحاره، ومن كواكبه، وأقماره وشموسه.

إن المادة والطاقة، إن أعماق البحار وآفاق السماء.

إن كل ذلك قد تركه الله سبحانه للإنسان يدرسه فى مصنعه ومعمله بآلاته، وأدواته، وحثه على أن يجول فى ذلك ما استطاع إليه

سبيلا، حتى يكتشف سنن الله الكونية، ونواميسه الطبيعية، ويرى صنع الله الذى أتقن كل شئ، ولم يقيد الدين الإنسان فى هذا المجال، اللهم إلا بالواجب الذى ينبغى أن يكون شعاره دائما، وهو أن يكون هدفه من كل ذلك الخير.

أما ما وراء الطبيعة والأخلاق والتشريع فقد أنزل الدين من أجلها، ومن أجل بيانها كاملة لا تحتاج إلا إلى فهمها وتدبرها والسير على نسقها.

وقد يتساءل متسائل:

أليس للعقل من مجال إذا فى الدين؟

ونجيب على هذا السؤال بأن للعقل مجالا كبيرا فى الدين.

وأول هذه المجالات وأهمها هو: إثبات النبوة.

ومتى ثبتت النبوة فإنه يجب أن يتلقى الإنسان كل ما أتت به عن طريق القبول.

والبدهيات التى تأتى بعد إثبات النبوة هى:

١- الدين هاد للعقل فى المجال الدينى، مجال الخير والشر، الهداية والضلال، مجال الحق الإلهى، والباطل الشيطانى.

٢- العقل متفهم للدين مهتد بهديه.

٣- الدين لا يناقض العقل؛ لأنه حق، فإذا رأى العقل ما يخالف الدين فهو عقل منحرف.

٤- الدين رسالة إلهية، وثمار العقل نتاج بشرى، ولا يتأتى لمؤمن أن يضع النتاج البشرى فى مستوى الرسالة الإلهية.

٥- ويقول الله تعالى:

﴿فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما﴾(١)

وأظن أن ما ذكرته هنا لا يمكن أن يمارى فيه مؤمن.

وهذا العدد الجديد من حولية كلية أصول الدين بالقاهرة - جامعة الأزهر يقوم على منهج أصيل فى البحوث التى يقدمها إنه منهج السلف الصالح فى العقيدة والتشريع، والأخلاق إنه يقدم الإسلام فى مصادره

١- النساء : ٦٥.

المعتمدة والسليمة والتى ليس فيها أى خلط، أو انحراف ونحب بهذه المناسبة أن نلفت نظر السادة الأساتذة الأجلاء الذين يتقدمون ببحوثهم للنشر فى الأعداد القادمة مراعاة القواعد التالية:

١- ألا يكون البحث منشورا من قبل على أى صورة من صور النشر، ولا مرسلا إلى جهة أخرى، ويعد إرساله إلى المجلة تعهدا بذلك، وفى حال قبوله للنشر فى المجلة لا يسمح للباحث بنشره فى مكان آخر إلا بعد مرور سنة كاملة على تاريخ نشره فيها.

٢- ألا يكون مستلا من بحث أو رسالة نال بها الباحث درجة علمية.

٣- ألا يتجاوز ستين صفحة.

٤- أن يكون متسما بالجودة والأصالة فى موضوعه ومنهجه، وعرضه ومصادره، متوافقا مع عنوانه، بعيدا عن الحشو، سليم اللغة، دقيق التوثيق والتخريج، مع الالتزام بعلامات الترقيم المتنوعة، وضبط المشكل، وأن يراعى فيه سائر المعايير العلمية.

٥- أن يكون العزو إلى صفحات المصادر فى الحاشية لا فى الصلب.

٦- أن ترقم حواشى كل صفحة على حدة.

٧- أن يقدم اسم الكتاب على اسم مؤلفه عند توثيق النصوص فى الحواشى، وكذلك فى ثبت المصادر والمراجع.

٨- ألا يشار فى الحواشى إلى المعلومات المتعلقة بطبعة الكتاب المحال إليه، إلا فى حال اعتماد الباحث أكثر من طبعة للكتاب الواحد.

٩- أن يراعى الابتداء بالتاريخ الهجرى فى كل ما يؤرخ.

١٠- أن تكتب الأعلام الأجنبية أولا بحروف عربية، ثم باللاتينية لمن أراد.

١١- أن تثبت المصادر والمراجع مستوفاة فى آخر البحث مرتبة على حروف المعجم.

١٢- أن توضع النماذج المخطوطة والصور التوضيحية فى المكان المناسب.

١٣- أن يقدم الباحث تعريفا ببحثه محررا تام التحرير فى نحو مائة كلمة، ويفضل ترجمته إلى الإنكليزية.

١٤- أن يرفق البحث بسيرة ذاتية للباحث.

١٥- أن يكون البحث مطبوعا، أو مكتوبا بخط واضح، ومصححا تصحيحا كاملا، وترسل النسخة الأصلية للمجلة.

١٦- لا تعاد البحوث إلى أصحابها سواء نشرت أم لم تنشر.

١٧- يشعر أصحاب البحوث الواردة بوصولها إلى المجلة.

١٨- يخضع ترتيب البحوث وتنسيقها فى المجلة لاعتبارات فنية.

هذا وبالله التوفيق

عميد الكلية

منيع عبد الحليم محمود

أ. د/ منيع عبد الحليم محمود